

# الكتاب الأول

## الفصل الأول

### تمهيد

السودان من محمد علي إلى سعيد

١ - السودان ومصر القديمة :

ان العلاقات بين مصر والسودان كائنة منذ القدم . يقول الأستاذ رايزنر : « ان البلاد التي كان يسميها القدماء ( الأراضي الجنوبية ) كانت تشمل جميع منطقة النفوذ المصري غير المحددة الممتدة شطر أفريقيا الوسطى والشرقية . وتدل النقوش على أن أهل هذه المنطقة كانوا من الرجال الحمر الذين يقطنون بلاد ( بنت ) الشهيرة الواقعة على ساحل الصومال ، والرجال السود في البلاد الجنوبية ، والنوبيين في وادي النيل ، والليبيين في الصحراء الغربية والبدو في الصحراء الشرقية (١) » .

وقد نجح ولاية مصر من أوائل حكم محمد علي ( ١٨٢١ ) الى آخر حكم اسماعيل في رد الحدود القديمة الى السودان المصري . وانتشر في عهدهم كما انتشر قديما نفوذ المدينة المصرية في أرجاء تلك « الأراضي الجنوبية » فكان النيل والبحر الأحمر ناقل المدينة الفرعونية تارة والمدينة العربية طورا الى هذه الأقطار . كتب جونستون : « أيا كان الأمر وسواء أكانت

Sudan Notes and Records, V. I. 1918. (١)

التجارة المصرية أو السيطرة المصرية قد اتصلت أو لم تتصل بطريق مباشر بتلك الأصقاع المحيطة بمناجيع النيل فان نفوذ المدينة المصرية القديمة قد تغلغل في أفريقيا السوداء . واذا استثنينا بعض النباتات والحيوانات الأليفة التي جلبها البرتغاليون من البرازيل أو التجار الآسيويون من الهند فان بقية الحيوانات والنباتات قد أتت كلها من طريق مصر . ومن مصر أيضا أتى التفكير في صنع القوارب المركبة من ألواح الخشب ، كالقوارب التي يستعملها سكان أوغندا ، ورسم الآلات الموسيقية الراقية المجردة من تلك البساطة البدائية التي نجدها في الطبول والبوقات المتخذة من قرون بقر الوحش . ولا شك أن أعواد أوغندا هي عين الأعواد التي تبدو صورتها على الآثار المصرية . ومما يدعو الى الدهشة حين نطالع وجوه الباهيا ( أرستقراطية حامية السحنة منتشرة في غرب أوغندا ، والأونيورو ، وطورو ، وفي الجنوب الشرقي من بحيرة فكتوريا والشمال الشرقي من بحيرة تانجانيقا ) أن نرى وجوها مصرية بحتة في هيئتها وملاعجها ولونها الذي لا يكاد أحيانا يتميز بسمرته (١) »

## ٢ - السودان ومصر في السياسة الرومية :

كان محمد علي ( ١٨١١ - ١٨٤٩ ) أو نابليون الشرق يريد توطيد الامبراطورية السودانية في حدودها القديمة التاريخية والجغرافية ولكن عمله الذي لم يتحقق كله قد قدر له أن يتم على يد حفيده اسماعيل ( ١٨٦٣ - ١٨٧٩ ) . وقد كان هذان العاهلان في الوقت نفسه يعملان على تحقيق استقلالهما التام ازاء تركيا من الناحيتين : القانون والواقع . ولكن أوروبا ما كانت بغافلة ، فمنذ سنة ١٨٢٦ في ابان حرب المورة وقد بدأت مصر تلمب بأسطولها وجيشها دور دولة كبرى أخذ السياسي

(١) هارى جونستون ( حماية أوغندا ) مجلدان بالانجليزية . انظر الجزء الأول صفحة ٢١٠

النمى السوى المكنك مرنىخ مكنر الدول من « قىام دولة افرىقىة جدىة ، باعبارها خطرًا طالمًا أعلن فى أوروبا أنه من أجل الأخطار التى تهدها (١) » .

وسواء اتجهت مصر فى توسعها صوب آسىا أو صوب أفرىقىا أو صوب الاثنىن معا كان لابد لها أن تلقى فى كل مكان « قدم انجلترا » — على حد تعبير محمد على — وأوروبا . وهذا ماىفسر لنا موقعة ناوارىنو ( ١٨٢٧ ) التى دمر فىها الأسطول المصرى على غرة ، والألب الدولى الذى أرغم مصر سنة ١٨٤٠ على استبقاء السىادة التركىة وترك امبراطورىتها الأسىوىة ( بلاد العرب ، فلسطين ، الشام ، كلىكىا ، وجزىرة كرىد ) الى تركيا .

---

(١) بروكش أوستن (تارىخ انحطاط اليونان ) فى خمسة أجزاء بالألمانىة .

انظر الجزء الخامس .

## الفصل الثاني

السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٦١

لقد حكم السودان منذ فتحه حكام قادرون مصلحون . أولهم الميرالاي عثمان بك ( ١٨٢٥ - ١٨٢٦ ) ولكن هذا الوالي كان ظلما فعم القحط والبلاء البلاد في أيامه وقد مات بداء السل في أبريل سنة ٢٦ . وحسبه أنه أول من جعل الخرطوم مركزا له فنقل اليها أقلام الحكومة والمخازن والأشوان وصارت من ذلك الوقت عاصمة السودان .

وقد خلفه في الولاية محو بك ( ١٨٢٦ ) فبقى بضعة أشهر وكان رجلا عادلا وهو أول من فكر في اشراك الأهلين أي السودانيين في حكومة بلادهم اشراكا فعليا ، وقد هدته حصافته وذكأؤه الى الاستعانة برأى الشيخ عبد القادر ود الزين « وكان اذ ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساه كسوة فاخرة » وقد بنى محو بك بناية خاصة للإدارة الحكومية في الخرطوم .

خورشيد باشا ( ١٨٢٦ - ١٨٣٩ ) أول حاكم نظم السودان وأسس مدينة الخرطوم وأقام فيها المنشآت وعمل على تعمير البلاد وارجاع السكان الذين هجروها في عهد الدفتردار وعثمان بك . يروى أنه لما حضر واليا على السودان ( يونيه ١٨٢٦ ) استقبله محو بك في أم درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها أهل الرأي فخذ برأى هذا » ثم توجه الى القاهرة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرب اليه

الشيخ عبد القادر ثم جمع مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخا لينوب عنهم لديه في تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيقا .

وقد ذهب في بداية ولايته الى سنار وتفقد أحوالها وما أصاب أهلها من قحط فجمع هناك مجلسا من رؤساء الادارة ، وقد سجل محضر اجتماع ذلك المجلس الكبير في ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ ( ١٢ أغسطس ١٨٢٦ ) في تقرير طويل بعث به خورشيد باشا الى محمد علي ، وهذا التقرير ( سجلات القلعة القديمة ) يبين عن جميع عيوب الادارة السابقة من اهمال وظلم في جباية الضرائب وفساد في الادارة وقد كان اقليم سنار يبابا بعدما جرده القحط وخف آهله فلم يبق في ١٤٥ قرية الا ٥٩٩ قطينا وكانت المجاعة والهجرة والوباء قد فعلت فعلها في سكانه ، ولم يكن من الميسور تحصيل الضرائب من قوم مدقعين . وقد قرر المجلس وضع حد لهذه الحال وتشجيع الزراعة ببناء السواقي لرى الأرض وإيجاد نظام جديد للضرائب يتناسب مع الحالة العامة ومقدرة كل فرد وبالجملة العمل على نشر الثقة والطمأنينة حتى يعود المهاجرون وتعود الأمور الى مجاريها .

وقد عمل خورشيد منذ سنة ١٨٢٦ على تنفيذ ذلك البرنامج الإصلاحى الذى وافق عليه والى مصر وبادر بارسال ١١٨ اخصائى لتعليم سكان سنار والسودان زراعة الأرض كما بادر بارسال رؤساء عمال لنشر الصناعة ومبادئها وخصوصا صناعة الفخار وبناء السفن .

ومن أجل أعمال خورشيد باشا منشآته بالخرطوم . كانت هذه المدينة قبل أن يستوطنها المصريون بضع عشش للصيادين مبعثرة بالقرب من ملتقى النيلين . فجعل فيها الحاكم المصرى مركز الادارة العامة للسودان وأوجد الثكن والترسانة والمباني العامة المشيدة بالآجر والرياض

وحدات الخضر والفاكهة . وهو أول من اجتذب السكان الى المدينة  
وحثهم لأول مرة على بناء منازلهم بالطوب المجفف في الشمس وكانوا  
لا يعرفون قبل ذلك الا البناء بالقش وأعواد الشجر وجلود البقر .

وقد حدثت رحلة والى مصر محمد على الى السودان فى أواخر سنى  
حكم خورشيد باشا ( ١٨٣٨ - ١٨٣٩ ) بعد أن سلخ السبعين فكانت رحلة  
كلها بمن واسعاد .

ظهر وصف هذه الرحلة بالتركية فى وقائع ٦ صفر سنة ١٦٥٥ هـ  
( ٢١ أبريل سنة ١٩٣٩ ) . وهذا أهم ما جاء فيه :

« بدأ سموه الرحلة فى ١٥ أكتوبر سنة ٣٨ . فبلغنا الخرطوم  
فى ٦ نوفمبر .

« مدينة الخرطوم ، العاصمة الحالية لسنار ، تقع على درجة ١٦ من  
خط العرض على بعد ربع فرسخ من ملتقى فرعى النيل . ولم تكن من  
خمس عشرة سنة خلت الا مجموعة من عشرة أكواخ « توكول » فلما  
رأى خورشيد باشا حسن المكان وطيب هوائه دعا أسرا عديدة من  
سنار وبعض عرب الصحراء الى الإقامة فيه وبناء منازلهم . وقد أصبحت  
الخرطوم اليوم مدينة مكونة من خمائة بيت مشيد بطريقة نظامية ،  
ومستشفى ، ومخازن وأشوان كبيرة وحدائق مختلفة يبت فيها وينضج  
فى الشتاء التين والعنب . . .

« ( واد مدنى ) مدينة عظيمة بسبب السوق التى تقوم فيها كل عام  
وتدوم ثلاثة أشهر . وسكانها ثلثائة أسرة جيدة المسكن . وهى كالخرطوم  
لها ثكنتها ومستشفاها وشونها .

« و ( سنار ) كانت مقر الملك فى مملكة سنار القديمة . ومنازلها مبنية  
بالآجر وهى فى مجموعها حسنة المنظر .

« غادر سمو الوالى الرصيرص فى ١٠ يناير فوصل الى جبال فازوغلى فى الثامن والعشرين منه .

« وينقسم سكان السودان الى ثلاث طبقات : سكان القرى ، والبدو أو سكان الصحراء ، وسكان الجبال . وللقرويين والبدو لون نحاسى ، يشبهون الأحباش فى هيئة أجسامهم وملامحهم ، وهم مسلمون على مذهب ابن مالك . أما الجيليون فهم وثنيون يعبدون الأشجار ، وهم من جهلهم فى ليل لائل لا يكادون يميزون بين الأرض والسماء .

« ومن عاداتهم أنهم عند الغزو تتعالى صيحاتهم الخادة ، ويرجحنون فى المعارك ، وتصحبهم نساؤهم فى الحروب لحمل الماء والزاد . وهم يبيعون أسراهم ، ولا يهاجمون فى الليل أحدا . وفى النهار شجعان مغامرون لا يرحمون ، يسرق بعضهم بعضا محاصيل الذرة والنساء والأطفال يتجرون فيها ، وقد أعلن سمو الوالى فى كل مكان تحريم الغزوة . . .

« ومن فازوغلى ذهب الوالى الى فازانجورو ثم هبط من جبال فازانجورو فى ٣١ يناير الى السهل حيث يصب خور العادى فى النيل الأزرق ، وقد اختار هذا الموقع لإنشاء مدينة جديدة .

« وأرض سنار غاية فى الخصب والجودة . . وان تكن الزراعة فيها لا تزال مهملة كل الاهمال . وقد توجد فى دنقلة بعض الآلات الزراعية ، ولكن فى البلاد الواقعة فوق هذه المنطقة يكتفى الزراع باثارة الأرض بقطع خشبية غالظة . وقد وزع الوالى مائة فدان من الأرض علاوة على أجرهم الثابت على المهندسين المصريين الذين اشتغلوا فى ريف مصر وصعيدها وخبروا الزراعات المختلفة ، وقدم لهم الآلات والحيوانات الضرورية ، ثم ألحق بكل منهم طائفة من شباب كل اقليم سودانى ، ليتعلموا فى كنفهم شؤون الزراعة ، وأعفاهم من الضرائب خمسة أعوام . ولاشك أن هذه المزارع النموذجية سيعم نفعها وسيكون أهم ما ينبت فيها قصب السكر والقطن والنيلة . . .

« ثم جمع الوالى بعد ذلك حوله بعض كبار المشايخ وخلع عليهم الخلع وخطب فيهم ونصحهم ان يقتدوا بالشعوب الأخرى التى كانت متوحشة ثم تمدت وانتقلت من حالة الخشونة والجهل الى حالة الأنس والمعرفة .

« أبهر الوالى فى خطابه فأعلن جميع المشايخ على الفور رغبتهم فى ارسال أبنائهم الى مصر ، وكان أكبرهم الشيخ عبد القادر لا ولد له فما عم أن التمس ارسال ابن أخته .

« وأعلن الوالى حرية تجارة النيلة التى يغزر زرعها فى مديريات دنقلة وبربر وأمر الحاكم العام بتقديم الآلات اللازمة وكل ما لا بد منه لتقدم هذه الزراعة .

ثم قفل راجعا فى ٣٠ ذى العقدة ( ١١ فبراير ) وعاد الى القاهرة فى ١٤ مارس سنة ٣٩ . . . »

أحمد باشا أبو ودان<sup>(١)</sup> ( ١٨٣٩ - ١٨٤٤ ) . وطد أحمد باشا

الأمن فى ربوع السودان ونظم الدواوين والادارة وعمل على ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وشجع الملاحة وبنى سفنا كثيرة كانت نواة البحرية التجارية فى السودان له ومن أكبر مآثره احتلال اقليم التاكة فى سنة ١٨٤٠ وتوسيع الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى ، وقد قصد بجيشه بلاد الخلائقة وكانت اقامتهم على نهر القاش فدانوا له بالطاعة وأمر عليهم محمد إيلَه . فلما رأت قبيلة الهدندوة ذلك ، وهى قبيلة ذات بأس وعدد وشحن على الخلائقة ، تمردت عليه وجمعت جموعها شمالى كسلا فى غابتي وهياى والكلياب فحول أحمد باشا مجرى القاش فعضشوا ويس الزرع والشجر فأشعل النار فى الغابتين فدعروا فلحق بهم وأعمل فيهم القتل وأسر شيخهم فدانوا له بالطاعة وأخذ منهم الجزية .

(١) ذكر نعوم شقير بك فى « تاريخ السودان » ان رحلة محمد على حدثت فى أيام أحمد باشا أبو ودان أى فى المدة من ١٥ أكتوبر سنة ٣٩ الى ١٤ مارس ١٨٤٠ والحقيقة أنها حدثت فى سنتى ٣٨ و ٣٩ كما ذكرنا .

وعاد أحمد باشا الى الخرطوم بعد أن ولى مديرا على كسله ثم أرسل البكباشى الياس أفندى الى بنى عامر فقاتلهم وأخضعهم وضرب عليهم الجزية .

وبعد فتح التاكة قسم السودان الى سبع مديريات : فازوغلى وسنار والخرطوم وكسله وبربر ودنقلة وكردفان .

أحمد باشا المنكلى ( ١٨٤٤ - ١٨٤٥ ) - قال نعوم شقير انه لم يمكث الا قليلا بالخرطوم حتى عاد أهل التاكة الى الثورة فجرد جيشا لمحاربتهم وسار لقتالهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ أحمد أبو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم ، وفي أواخر سنة ١٨٤٥ عاد الى مصر ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين فأكرمهما محمد علي وأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ماكنت أظن أن بلادا ليس فيها شيء من أسباب التمدن والتهديب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » .

عبد اللطيف باشا ( ١٨٥٠ - ١٨٥١ ) - عمل على اصلاح الادارة التى اختلت فى عهد سلفه خالد باشا فأزال المظالم ونشر العدل وهو الذى جدد ديوان الحكمدارية أو سرايها فى الخرطوم فبقى الى الثورة المهديّة وأنشأ مدرسة أميرية برئاسة رفاعة بك الطهطاوى ويومى بك اللذين تفاهما عباس باشا وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة .

على باشا شركس ( ١٨٥٥ - ١٨٥٧ ) - أهم حوادث ذلك العهد اثنتان الأولى انتشار الهواء الأصفر وموت خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وقد خلفه ابنه الزبير فبقى فى الخرطوم زمانا ثم ذهب الى مصر فعين معاونا فى نظارة الداخلية .

والثانية زيارة سعيد باشا للسودان وقد أعلن سعيد باشا رغبته في ترك السودان ولكن السودانيين خشوا مغبة الترك وعودة الفوضى الى البلاد فحاولوا دون تحقيق هذه الفكرة الشاظة واكتفوا بالمطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات العاجلة . وقد أنقص الوالى الضرائب وأنفذ اجراءات كثيرة مطابقة لرغبات السكان وكان من أهم ما قام به تعيين أراكيل بك نوربار حاكما للسودان ( ١٨٥٧ - ١٨٥٩ ) ولاشك أن تعيين مسيحي في ذلك المنصب دليل على روح التسامح عند الوالى وتقديره لما اشتهر به أراكيل من حزم وعدل وكفاءة في الادارة وتصريف الأمور وقد تجلت هذه الصفات والمواهب حين همت بطائفة من السكان بالثورة على هذا التعيين وسرعان ما اتقادت له الأحوال واستقرت .